الإسلام نظام عالمي

للأستاذ عباس خضر

شاع بيننا — منذ غزتنا أوربا بجيوشها وحضارتها — أن الحياة الدينية شيء آخر غير الحياة العملية، وحرص الغزاة على أن يقروا هذا الوهم في نفوسنا، وأردنا نحن ذلك وسعينا إليه وعملنا له، عندما رأينا الحياة الأوروبية نفسها قائمة على ذلك الوضع، إذا بدا لنا أن ننهض كما نهضت أوربا، وقد قامت النهضة الأوروبية بمعزل عن الحياة الدينية بعد أن اجتازت دور الصراع بينها وبين الكنيسة، ذلك الصراع الذي انتهى إلى جعل الدين في وضع صلاحي يتفق مع مبادئ المسيحية التي تنحصر في شعائر العبادة والتهذيب الروحي وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ولم نهتم بأن نلائم بين نهضتنا الحديثة وبين شريعتنا الإسلامية، وساعد على ذلك جمود علماء الإسلام ونفورهم أو توجسهم الشر من دخول الحضارة الأوروبية إلى حياتنا، وكان التيار — ولا يزال — جارفاً، ولم تكن مقاومته مستطاعة، ولم تكن من الخير لتقدمنا، وكان الخير كله أن نتقبله ونحيله إلى ما يوافقنا، وكان هذا يقتضي نشاطاً عقلياً متجدداً، وكان أيضاً يقتضي جواً من الحرية خالصاً من أغراض الاستعمار

ولندع ما كان وما كان يمكن أن يكون، لنعود إلى ما جرنا إليه، وهو تقليد الأوروبيين في التفرقة بين الدين والمجتمع. الحقيقة التي يعرفها كل متبصر في الإسلام أن هذا الدين نظام كامل للحياة من نواحيها المختلفة، وهو ينظر إليها على أنها « مركب » — كما يعبر الكيميائيون — فليس هناك ناحية روحية منفصلة عن ناحية مادية، وليست هناك سلطة زمنية لا تعرف الدين إلا على سبيل التبرك به، وليس للدين رجال مميزون دون سائر المسلمين، فكل مسلم رجل دين، وقد جرى المجتمع الاسلامي — قبل تقليد الأوروبيين — على تسمية الدارسين للشريعة الاسلامية بأسماء مختلفة ليس من بينها « رجال الدين » كانوا: أئمة، علماء، فقهاء، الخ وكان لفظ « الاسلام » لا « الدين » هو الذي يطلق غالباً على هذه الشريعة الكاملة التي تشمل نواحي الحياة جميعاً، كما تطلق الآن كلمة « الديمقراطية » أو « الاشتراكية » أو « الشيوعية » لتدل على مبادئها ووسائلها في تنظيم الحياة

كنا إذن « إسلاميين » ثم تحولنا عن « الاسلامية » في أكثر نظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وأرضينا ضميرنا الديني أو خدعناه بأنه يكفي لاسلامنا أن نؤدي بعض الشعائر ونخضع للكثير من الأباطيل والخرافات التي تلتبس بشعائر الدين، وضربنا سوراً حول المشتغلين بالدراسات الاسلامية وعرفناهم بزي خاص وسيماء معينة وسميناهم روحانيين ثم سمينا أنفسنا « ديمقراطيين » وأخيراً حلا لنا لفظ « الاشتراكية » فاتخذناه أو ادعيناه كما

وأصبحوا تبعاً (*) للأجنبي، فما … زادوا وحقك إلا سوء تدبير!
وكان بالأمس حب الله يجمعهم … فبات يجمعهم حب الدنانير!
وذي فلسطين أولى القبلتين، لقد … بيعت على يدهم بيع الجآذير!
والشعب — واحربا للشعب — ساعة … تقودها في الفيافي كف مأجور
قد باع تقواه بالدنيا، وقال لها: … سيري كاشفت عمياء الهوى سيري

ياسيدي، يانجي الله، روعنا … صرف الزمان بشر منه مسعور
وامتد بالعرب ليل النائبات، أما … للفجر بعد الدياجي من تباشير؟!
وطال منا السرى في مهمه درست … فيه الصوى (٦) قاتم الأرجاء مسجور
فاشفع فإنك أدنى المرسلين إلى … الباري، فنسلم من ذل وتعيير
ويرجع العز معقود اللواء لنا … وحقنا مستحير غير منزور (٧)
واكلأ عليك صلاة الله، أمتنا … حيال ربك حتى نفخة الصور

بيروت — جورج سلستي

*) التبع: جمع تابع كخادم وخدم
٦) الصوى: جمع صوة وهي الحجر يكون هادياً للسافر يغنيه عن الدليل
ومسجور: فارغ، ساكن — والموقد.
٨) المستحير: المكتمل، والقائم الذي لا يتطلع

ادعينا الديمقراطية من قبل

ولنفرض أننا الآن أردنا أن نعود إلى الاسلام بمعناه الحقيق الكامل ، مع استمرار سيرنا فى ركب الحضارة العالمى ، فهل يمكن ذلك ؟ وماذا ينبغى أن نفعل ؟

أعتقد أولا أنه لا يقف فى سبيل ذلك إلا فهمنا المخطئ لحقيقة الإسلام ، وأول شىء هو أن نصلح هذا الخطأ فى عقولنا ، ثم نعمل بمقتضى هذا الاصلاح

والعجيب أن كثيراً منا يدافعون عن الإسلام بما لا يجعله صالحاً لسايرة التقدم الانسانى ، فيثلبون النظم الغربية لأنها مادية وأما نحن فقد صفت قلوبنا من المادية لأننا روحانيون . ! فهل نحن كذلك ، أو هل ينبغى لنا أن نكون كذلك ؟ لقد أشرت فيما تقدم إلى أن الاسلام ينظر إلى الحياة كوحدة كاملة ، حياة تسودها الضرورات المادية ويحكمها الضمير أو الوازع الذى ينظم التكافل الاجتماعى ويربطه برباط مكين

إن الإسلام لم يهمل الجانب العملى فى الحياة ، بل حث عليه ودعا إليه ، قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون. فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده »

بل إن الإسلام قدم الجانب العملى فى الحياة على الجانب التعبدى ، ورفع الأول على الثانى فى بعض المواطن . روى أنس : كنا مع النبى فى سفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، قال: فنزلنا منزلا فى يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، فمنا من يتقى الشمس بيده ، قال : فسقط الصوام ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب، فقال الرسول صلوات الله عليه وسلامه : ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله

وذكر للنبى صلى الله عليه وسلم رجل كثير العبادة فقال : من يقوم به ؟ قالوا : أخوه . قال : أخوه أعبد منه

وشهد شاهد عند عمر بن الخطاب ، فقال : ائتنى بمن يعرفك ، فأتاه برجل ، فأثنى عليه خيراً ، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟ قال : لا . قال : كنت رفيقه فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا . قال : أظنك رأيته قائماً فى المسجد يهمهم بالقرآن ، يخفض رأسه تارة ويرفعه أخرى ؟ قال : نعم . فقال : اذهب فلست تعرفه . وقال للرجل : اذهب فائتنى بمن يعرفك

هذا هو الإسلام فى حقيقته ، يحض على العمل ، ويقدر القيم بالنتائج العملية ، ويعرف أقدار الناس بأعمالهم وسلوكهم فى المجتمع لا بمظاهر النسك والعبادة . وهو يقيس هذه الأقدار أيضا بكفايات أصحابها وما يحسنون من أعمال . كتب أبو بكر إلى أبى عبيدة ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن أبى قحافة إلى أبى عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك ، أما بعد فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام ، فلا تخالفه واسمع له وأطع ، فإنى وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه وأفضل دينا ، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبيل الرشاد »

وهكذا فرق أبو بكر بين الورع والتقوى وبين الكفاية الحربية، وهو فى ذلك يصدر عن روح الإسلام العملية ، فهو مع إكباره لأبى عبيدة وتقديره لديانته وتقواه ، يسند العمل لمن يراه أهلاً له وأقدر على القيام به ، وهذا يدل على أن رجال الحكومة فى الإسلام لا يصطبغون بالصبغة الدينية المقدسة ، فإن الإسلام يقضى بأن يتولى الأمر من يحسنه لا من هو أعلم وأتقى ، ومن هنا تبطل دعوى من يصف الحكومات الاسلامية بأنها دينية لا تصلح للقيام بالأمور ، لأنها تتسلح بالقداسة الدينية وتمتنع بها على النقد

وذلك لأن الحكومة التى تسير على نهج الاسلام لا تتصف بالصفة الدينية على النحو الذى يصفونه ، وإنما هى حكومة تستمد سلطتها من الأمة لا من حق إلهى ، وتعمل بمراقبة من الأمة ، وكلنا يعلم ما قاله عمر بن الخطاب ، وهو واقف على المنبر : من رأى فى اعوجاجا فليقومه ، ورد أحد المسلمين عليه بقوله : والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا

أما التكافل الاجتماعى بين الناس فقد بلغ فيه الاسلام الغاية حتى إنه جعل الأمة الاسلامية كلها جسماً واحداً، قال النبى صلى